الحكم الذاتى فى المدرسة

للأستاذ السيد يعقوب بكر

— ٢ —

ولنتكلم الآن عن مجالات scopes الحكم الذاتى

فنحن يمكننا أن نعتبر البيت فى المدرسة الداخلية أحسن مجال يمكن أن يصطنع فيه الحكم الذاتي . فالبيت من جهة أضيق من أن يعجز بعض أفراده عن تدبير أمره تدبيراً محكما ، والحياة فيه تقدم أكبر قدر من وجوه النشاط المختلفة التى يمكن للتلاميذ أن يتخذوا منها ميداناً لتدبيرهم وتنظيمهم

وهناك مجال آخر من مجالات الحكم الذاتى هو الفصل المدرس class or form . والمآخذ على هذا المجال تتلخص فى أن الأغراض التى يرمى الفصل إلى تحقيقها أولا وقبل كل شيء تخرج من مجال الحكم الذاتى كثيراً من نواحى حياة الأطفال الاجتماعية التى هى ألصق بهم ؛ وفى أن انتقالات التلاميذ كل سنة من فرقة إلى فرقة أعلى يصحبها فى كثير من الأحوال تغيير مستمر فى أعضاء الحكم الذاتى

وهناك مجال ثالث للحكم الذاتى هو تلك الجمعيات التى يؤلفها التلاميذ قاصدين بها إلى ممارسة وجوه من النشاط تضيق عنها جدران المدرسة كالجمعيات الأدبية والجمعيات التمثيلية وجمعيات فلاحة البساتين وجمعيات التصوير وغيرها

وأخيراً يمكن أن نجعل من المدرسة كلها مجالاً للحكم الذاتى . ولكن هذا لا يمكن أن يتأتى بسهولة إلا إذا كان تلاميذ المدرسة لا يزيدون عن أربعين طفلاً أو خمسين

فهذه هى المجالات التى يمكن أن يتخذ منها الحكم الذاتى مسرحاً يمثل عليه دوره . على أننا لا نحب أن نترك هذه المسألة قبل أن نتناول الحكم الذاتى فى الفصل بشيء من التفصيل . فنحن نريد أن نقول إنه ليس من الضرورى فى كل الأحوال أن يمتد الحكم الذاتى إلى نطاق الفصل . وبيان ذلك أنه إذا كان ثم عداء متوارث بين التلاميذ من جهة والمدرس والمدرسين من جهة أخرى ، وإذا كانت حياة التلاميذ خارج المدرسة حياة يتناوبها العسف والضغط ، فإن الحاجة تكون حينئذ ماسة إلى

يتقدم المريض إلى الطبيب وهو يود أن يكون له كل ما يريد تلك ظاهرة من ظواهر المرض لا تخفى على أحد

غير أنها قد تفوت على من لا يحب أن تفوت عليه ، نعم تفوت على الطبيب ، تمر عليه دون أن يقيم لها وزناً — هنالك يختل ميزان الإنسانية ، لأنه بيد الطبيب ، ولا يعود المريض ، ولا غير المريض ، يرى فى الطبيب ذلك الهيكل القدسى الذى يقصد إليه ليلقى بالروح والجسد بين يديه ...

ولكن المريض كالغريق ، يتعلق بكل ما يرى وما يجد — إذن فيا رحمة الله اهبطى على قلب الطبيب ! ويا سكينته انزلى على قلب المريض ، ويا ألله ألطف بهذا الإنسان ، وهذا الإنسان ...

* * *

وهكذا لن يستطيع المريض أن يفر من رحمة الله ، فقد وسعت رحمته كل شيء ، وإلى أى النواحى اتجه ، وإلى أى المؤاسين قصد ، ففى رحمة الرحمن البرء والرضا والأمان

وإن لله لحكمة بين الناس فى دنيا الأمراض ، إذ يولد ابن آدم وليس عليه غير الصحة والعافية ، حتى إذا استلمها أخذ يخضعهما لأغراض فى الحياة مدى الحياة ، ثم يذهب وقد ذهبت عنه الصحة والعافية وأغراض الحياة ...

وإن فى المرض لآية يدرك بها المرء معنى الصحة ، وإنها هى الحياة ، وإنها من الله ، وأنه لا شيء سواها ، ولا أحد سواه

خذ نفسك أيها المريض بيقين الشفاء ، وجسمك بصحيح العلاج ، ثم اصبر فإن الله كما قضى لك بما تحب منه ، يقضى عليك أن تصبر له على ما يحب فيك ...

وكن عبده وألق القياد لحكمه

* * *

وهو الله يمتحن الطبيب بالمريض ، ليس ليعلم قدر علمه ، إذ فوق كل ذى علم عليم ، وإنما ليسأله الواجب الذى ارتضاه لنفسه ، والمهمة التى أقسم عليها ، أليس هو الذى اختار المهنة التى يعمل لها ؟

إلى الأطباء إذن أيها المرضى . لا تسألوهم الشفاء ، وإنما اسألوهم وسيلتهم إلى الشفاء — أن يكونوا لكم أصدقاء ، بل ونعم الأصدقاء

إن الطب تخمين ، والإنسانية يقين ، و « الحكيم » البصير يسير بينهما وهو آمن وأمين . إذ شتان بين طالب الله وطالب من الله ...

إن الرحمة لم ترفع بعد من الأرض إلى السماء ، أيها المرضى وأيها الأصحاء ...

فمن كان له قلب فله الرضا من كل شيء ...

(بحيرة قارون) راشد رشتم

قدر من الحكم الذاتى يتناول الفصل . أما إذا كانت العلاقة بين التلاميذ والمدرسين علاقة تسودها المودة والصفاء ، وكان التلاميذ من جانبهم يميلون إلى التعلم ، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الحرية خارج المدرسة ، فمن المشكوك فيه حينئذ أن يكون الحكم الذاتى شيئاً ضرورياً مرغوباً فيه

كذلك لا نحب أن نترك هذه المسألة قبل أن ننبه إلى أن وجوه النشاط فى داخل المدرسة مرتبطة أشد الارتباط بوجوه النشاط فى خارجها وأن الحكم الذاتى فى خارج الفصل لا يمكن لهذا السبب أن يتم له النجاح إذا كانت الأمور فى الفصل تجرى على قواعد بالية عتيقة

وليس للحكم الذاتى نظام خاص صالح لكل الأحوال ، وإنما هو يتكيف بحسب الحالة التى يوجد فيها ، فالسن ، والجنس وتقاليد المدرسة ، وشخصية المدرسين ، وطبيعة البيئة التى يأتى منها التلاميذ ، والمثل الاجتماعية التى يُرمى إلى تحقيقها — كل هذه يجب أن تترك فى الحكم الذاتى أثرها وتكيفه وفقها .

وأنا أعتقد أن قيمة الحكم الذاتى تزيد وأن مجاله يتسع إذا أمكن أن نبث فيه روحاً اقتصادية . وذلك يكون بإعطاء التلاميذ فى كل أسبوع قدراً معيناً من المال يستطيعون به أن يدبروا الأمور المالية المختلفة التى كان يقوم بها من قبل مدبرو شئون المدرسة . فيستطيعون مثلاً أن يشتروا ما هم فى حاجة إليه من الأقلام وأقلام الرصاص ، وأن يشتروا الجرائد اللازمة للمكتبة ، وأن يشتروا جميع الأدوات اللازمة للألعاب games سواء أكانت داخل المدرسة أو خارجها ، وأن يشتروا حاكياً أو مذياعاً ، وأن يؤثثوا غرفة هادئة للمطالعة ، وأن يقوموا بالرحلات الخ . وكل هذا يستدعى بالطبع وجود مصرف فى المدرسة يودع فيه ما يُعطاه التلاميذ من مال ، ويقوم على تدبير أمره أحد هؤلاء التلاميذ . وكل هذا يستدعى أيضاً أن تقدم اللجان المختلفة ميزانياتها ، وأن تفحص هذه الميزانيات لجنة مالية مختصة لتقرر ما تراه .

وقد يكون من بين التلاميذ الذين يصطنعون الحكم الذاتى — ومعظمهم من غير شك قد بلغ سن الشباب — بعض التلاميذ الذين لم يبلغوا هذه السن بعد . فهؤلاء التلاميذ الأحداث يمكنهم أن يشاركوا فى عملية الحكم الذاتى ، ولكن على شرط ألا يكون عددهم كبيراً جداً . وهنا يفترق نظام الحكم الذاتى عن نظام المرفاء الذى يُخضع التلاميذ الصغار لسلطة التلاميذ الكبار .

ويجب أن يعتبر الحكم الذاتى وسيلة يعاقب بها التلاميذ بعضهم بعضا . وعلى ذلك فيجب ألا يكون العقاب إلا حين يكون من ورائه صون لقوانين الحكم الذاتى من أن تُنقض ، تلك القوانين التى شرّعها التلاميذ أنفسهم وقصدوا بها إلى ما فيه الخير لهم جميعاً . على أن هذا العقاب يجب أن يكون خالصاً من الغل مبرءاً من الضغينة . فالقوة إذن سناد لقانون الحكم الذاتى فى مجتمع التلاميذ كما أنها سناد القانون فى المجتمع الكبير . ولكن كلما قوى شعور التلاميذ بما فيه مصلحتهم العامة فإن الحاجة إلى العقاب تقل .

وهنا يأتى الكلام عن مسألة من أهم مسائل الحكم الذاتى : فيجب ألا يتطرق إلى الأذهان أن نظام الحكم الذاتى يرفع عن عاتق ناظر المدرسة ومدرّسيها مسئولية التأديب ، فهو على العكس من ذلك يزيد من مدى هذه المسئولية ؛ وذلك لأن عملية الضبط لا ترمى حينئذ إلى حفظ النظام order فقط بل إلى غاية تربوية كذلك . ومعنى هذا أن عملية الضبط فى هذا النظام لا تقصد مباشرة إلى مجرد حفظ النظام ، وإنما هى تقصد عن طريق غير مباشر لا إلى منع النظام من أن يتطرق إليه العبث ويخترمه الخلل . وإنما تصطنع عملية الضبط هذا الطريق غير المباشر لتكفل للغاية التربوية التى يرمى إليها الحكم الذاتى أن تتحقق ، وما هذه الغاية التربوية إلا إفساح المجال لشخصيات التلاميذ حتى تنمو وتترعرع .

ولكن هذا النوع من الحرية لا يرضى به دعاة التحرير Emancipationists . فهم يقولون إنه ليس إلا مسخاً للحرية ؛ ذلك لأنه يفرض على التلاميذ ما يريده المدرس ، فإذا أراد هؤلاء أن ينطلقوا مع سجيتهم فيما يفعلون فإنهم سرعان ما يعوّقون . وإنما ينادى دعاة التحرير بحرية خالصة من القيود ينطلق معها التلاميذ أينما يريدون فيقعون فيما يقعون فيه من أخطاء ويعالجون هذه الأخطاء كما يجبون

على أن الأستاذ جون آدمز لا يرتضي مذهب هؤلاء . فهو ينادي بأن تكون للمدرس السلطة العليا ، تلك السلطة التي تحفظ على جماعة التلاميذ صالحها العام الذي قد تودي به الحرية المتطرفة . أضف إلى ذلك أن الحياة الواقعية حياة مفعمة بالقيود : القيود العامة التي تغلنا بها الحياة في المجتمع ، والقيود الخاصة التي يغلنا بها من نخضع له أو من نخضع لهم . فإذا كان التلاميذ لن يواجهوا في المستقبل حياة خالصة من القيود ، فأحر بهم أن يعوّدوا منذ الصغر الخضوع لسلطة مرب أو مربية يقصد كل منهما إلى تهيئة ظروف المدرسة بحيث تكفل لسلوك التلاميذ وشخصيتهم الترعرع والنماء

ويرى الأستاذ أسبورن Osborne أن تقسم السلطة مناصفة بين الناظر والمدرسين من جهة والتلاميذ من جهة أخرى . وهو يعتقد أن هذا التقسيم لا يضير نظام الحكم الذاتي في شيء . فالناظر مثلاً يمكنه أن يفرض على التلاميذ مزاولة الألعاب الرياضية في أيام معينة من الأسبوع ، ثم يترك لهم توزيع ضروب هذه الألعاب على هذه الأيام ، فيجعلون هذا اليوم للكريكيت cricket وذاك للكشف وهلم جرا . على أنه لا يمكن فصل هاتين السلطتين فصلاً تاماً ، فيجب على الناظر والمدرسين أن يصغوا إلى ما يوجهه لهم التلاميذ من نقد ، وإن كانوا يملكون حق إهمال هذا النقد

وقد عرض الأستاذ جردن ماكاي A. L. Gordon Mackay لهذه المسألة ، فقال إنه لا يمكن أن يتحقق نظام الحكم الذاتي من غير وجود المربي . ولكي يبيّن صحة ذلك انتقل إلى وظيفة المربي ، فقال إنها تتلخص في العمل على نشر القدرة Ability المنطوية ، ثم العمل على تنمية قدرة تلاميذه جماعة وأفراداً . فالمربي أولاً مرشد وفيلسوف وصديق ، وهو إلى ذلك ناصح أمين في كل ما يتعلق بالدروس والاجتماعات وسائر وجوه النشاط في الفصل .

على أنه يجب أن يتصف بصفات معينة تعينه على أن يكون كذلك ، وهذه الصفات ليست إلا صدى للعلاقة التي تربطه بالتلاميذ . فهو يجب أن يثق بأنه قادر على معاونة تلاميذه على نشر مواهبهم الكامنة ، وهو يجب أن يعتقد أن نفوس تلاميذه تنطوي على حكمة كثيرة مخبأة ، أو على صفات أخرى تستحق أن يكد في سبيل إماطة اللثام عنها ، وهو يجب أن يكون ذا عقل واسع الثقافة ، وشخصية منسجمة الأطراف متوافقة الأنغام ، وقدرة على التنفيذ ، وهو يجب أن يجمع إلى هذه الخصال كلها حباً للأطفال يلهبه الحماس ، ولكن الحماس الذي يخفف من حدته الحذر ويبعد غوره التبصر

ويزيد الأستاذ ماكاي على ذلك ، فيقول إن المربي يجب أن يشعر تلاميذه بأن نجاحهم ونجاحهم فقط هو الهدف الأسمى للمربي ، وأنه ما وجد إلا للوصول إلى هذا الهدف . وعلى ذلك يجب أن يحملهم باستمرار على أن يهدفوا نحو شكل من أشكال الكمال هو في الحقيقة أبعد من أن يتناوله ذرعهم ، وأن يشعرهم بأنهم إن فشلوا في الوصول إلى هذا الكمال فلسوف يستطيعون فيما بعد أن يحاولوا محاولات أخرى نحدوها خبرة أوسع

والمربي كذلك يجب أن يوفق بين نواحي الضعف في المربي ونواحي القوة ، فيعطي من هذه لتلك ليصل بالمربي في آخر الأمر إلى حال من التوازن قائمة على تعاون ملكاته وتواصلها

وصفوة القول أن نظام الحكم الذاتي يتطلب وجود المربي ليلعب فيه دوره الهام .

(للحديث بقية أخيرة)

السيد يعقوب بكر

سينما ستوديو مصر

البرنامج ابتداء من الإثنين أول مارس سنة ١٩٤٣

شركة ر . ك . و . راديو تقدم

شارلز لوتن — جون هول

بيجي دريك

في الفيلم الظريف

« جزيرة الأحلام »

٤ حفلات يومياً ٤